الخلود والأدباء

[مهداة إلى الأستاذ المازنى]

للأستاذ عبد الحليم عباس

يعتقد الأديب — والأديب الناشىء على الأخص — بأنه الانسان المصطفى لتأدية رسالة الحياة إلى الأحياء، وأن غيره ... هذه المخلوقات التى لا تدين بالأدب ولا تتلق وحى الفن، ليست خليقة أن تساميه، ولا أن تطال إلى مقامه. إنما تقف فى حيث تأخذ عنه، وتسمع اليه ... ومن ثم فهو خالد بخلود هذا الأدب، وما عداه — من عباد الله — فمن التراب وإلى التراب ... وهذه قضية مسلم بها — فى رأى الأديب — لا تحتاج إلى مماراة، ومن هنا يجىء هذا العنت، وهذه السلسلة من الخيبة والاخفاق فى حياة الأديب. إنه يعجب من الناس كيف لا يقدرونه حق قدره، وكيف لا يتنحون له عن مقامه الذى هو خليق به، والذى أعدته الحياة له؟ ولم لا! وهذا العلم بالحياة، وهذه المذاهب الفلسفية، والتبحر فى فنون الأدب، أليس من حقها أن تقدم صاحبها وتقدره من المجموع؟.. بلى بلى — هكذا يقول الأديب — ولكنه ظلم الحياة، وجحود الأحياء، فما عليه إلا أن يقف معانداً لهم، مناهضاً لهذه الحياة، ليُعاد اليه حقه السليب المهتضم ...

وبين هذا العناد والاصرار يضيع الأديب حاضره، ويخرّب حياته، وقد يخربه الجوع ... قال لى أديب ناشئ: لست أنظر الى الجراح الماهر إن لم يفهم الأدب أكثر من نظرى إلى جزار وقال لى آخر: سأترك العمل عند هذا الوزير لأنه سخيفٌ وبذىء! فقلت له: هل أصابك رشاش من بذاءته؟ قال: كلا! ولو حدث لأدّبته! قلت إذن دعه وشأنه. قال لا أستطيع. وفى اليوم التالى أضاع أديبنا وظيفته. وقليل من رجال الأدب من ربحت تجارته الدنيوية، وأصبح من رجال الأعمال

مثل هذه الحوادث كثيرة نشاهدها فى كثير من الأحيان، ونحتار فى تعليلها؛ ولكن مردها فى البعيد يعود إلى فهم الأدباء للحياة على ضوء الأدب، وإلى الذهاب فى تقدير قيمهم، وإن من حقهم أن يتعالوا على الناس، لأنهم من طائفة الخالدين ...

ويكبر الأديب، ويشب عن الطوق — كما يقولون — وتمر عليه صورٌ من الحياة، وتثقله تكاليفها اليومية السخيفة — كما ينعتها سبينوزا فيرى أن يقبل عليها، ويضرب مع الضاربين فيها — إن أراد أن يعيش — فالكواكب ليست أرغفة، والسماء لا تمطر بقلا ... وهكذا ترغمه الحياة على أن يصانعها ويصانع معها الأحياء ...

... ولكن هل انتهى بينه وبينها الخلاف؟ وهل أصبح هو وبينها على أتم وفاق، يوم علم أن هذا الأدب الذى يدلُّ به ليس له كبير فضل، وأن هذا الخلود لا يعنى شيئاً؟ لقد خلدت فى الدنيا بغلة أبى دلامة، وحمار الرشيد. أم أن فهمه للدنيا على هذا النحو الجديد، يعنى بداية معركة جديدة حامية، ولكنها تحرق الأديب قبل أن تحرق غيره.. أظن أن كثيرين يوافقوننى على أن هذه بداية معركة لا نهاية؛ فالحياة لم تلق من هؤلاء الذين يناصبونها العداء طول حياتهم مثلما لقيت من هذه الطائفة من الأدباء الذين يضربون فى زحمتها، ويسايرون مواكبها، على أن يخرجوا لها ألسنتهم هزؤاً، كلما آنسوا منها غفلة، وليفضحوا سرائرها فى كل حين ...

لم تنته المعركة بعد، فليست قضية الخلود هى كل الخلاف بين الأديب والأحياء. فكيفما جارى الأديب الناس فى فهمهم للحياة فلا مشاحة فى أنه يفهم الحياة على وجهة تختلف عن الوجهة التى يفهمها عليها الأحياء، إذ أن الأمر لا يتعلق باختياره؛ وقد يحب هو أن يجاريهم فى كل شىء، ولكن ما حيلته فى هذه الأعصاب التى ركبت على شكل يختلف عما ركبت عليه أعصاب الناس — أحسن منهم أو دونهم هذا لا يعنينا — إنها مرهفة دقيقة، مستوفزة، تفعل بها الاشارة الغامضة ما لا تفعله بغيرها العبارة الصريحة، كيف يحب؟ وكيف يكره؟ وكيف يجنُّ بالحسن، وتفعل به الزهرة الغضة أو الذابلة؟ هذه أشياءٌ تفسيرها عند هذه الأعصاب

وشىء آخر يباعده عنهم، ويعد فى شقة الخلاف، هو أين يعيش الأديب، وما هى دنياه؟؟ لا نحب أن نكتب خيالاً،

إن إدمان مطالعته فى نماذج الجمال والأدب ، ولد فى نفسه حباً للجمال . إنه يعيش بهذا الجمال الذى يطالعه به الخيال ، أكثر مما يعيش فى دنيا الواقع ... كما وإن إدمان دراسته للحياة والواقع فتح عينه على الجانب البشع منها . أليس فى الحياة بشاعة ؟ ومن لا يقول هذا مع الأديب ، حتى عباد الحياة أنفسهم ؟ إذن فهو يريد أن يتسامى فى هذا الواقع ليوائم بينه وبين ما فى نفسه من جمال ، يود أن يرتفع بهذه الخلائق ، يذيب نفسه قطرة قطرة ، ليرى الناس جمال الحق وعظمة الصدق ونبالة الوفاء ، ولكن الحياة والواقع يحتاجان إلى نقائض هذه ، فما هو إلا أن يشعر بالخيبة حتى يروح يحرق الأرم وينطوى على نفسه ؛ وبين الخيال ، وركود الأحياء فى دنيا الواقع ، تختضب الأيام بدم الكاتب ، فهو على مثل هذا وفاق بين الأديب ودنياه ، على أننا لا نأسف — نحن النظارة — لذلك ، فلو لم يغمس الأديب قلمه بدمه ، ولو لم يقدم نفسه قرباناً للجمال والحق ... لما عرفنا أين يقع الجمال والحق فى هذه الدنيا . فلتدم هذه المعركة — وهى دائمة بفضل هذه الأعصاب الشاذة — ما برحت — وإن نحر فيها الأديب نفسه — تدنينا من الحق ، ولو قيد شعرة . . . إذن فلا وفاق بين الأديب والأحياء .. ؟ نعم ولو أصبحت هذه الدنيا وفاق حلم الأديب ، ودنياه المثالية ، فالخيال لا يزال يبدع والجمال فى هذه النفوس لا يحد . . .

وما هـذه المصانعة التى تبدو من جانب الأدباء للحياة فى بعض الأحايين والتى يخيل إليهم فيها أنهم أصبحوا يتلقون الحياة كما يتلقاها الآخرون — « بلا ندم ولا سخط » إلا مخادعة النفس ، وإلهائها عن آلامها الرفيعة التى تحزُّ فيها ؛ هى قطعة الحلوى تقدمها للطفل لتسكته عن الصراخ

كيف يكون على وفاق هذا السابق السابق مع المقعد المتخلف ؟ فالأدباء فى كل أمة هم رواد النهضات . يشيرون إلى العالم البعيد المجهول المتلثمة به أفكارهم ، الآخذ عليهم مسارب نفوسهم ، وخفق أشواقهم . كلُّ نهضة كان يسبقها أديبٌ أو أكثر ، يبشر أن فجر الحق قريبٌ ورائع ، وأن هناك فى ضمير الغيب دنيا أمتع من هذه وأحلى . . .

. . ؛ والآن هل استطاع المازنى — أن يلقى الحياة ، كما يلقاها الغير ، أبناؤها ؟ أما هو فيكاد يقول نعم ، أو قد قالها بالفعل ، بعد أن أزاح من فكره — حب الولع بالخلود — والحمد لله . أما نحن جمهرة القراء فنقول لا ، وتعدُّ بها أصواتنا

كيف يلقى الناس الحياة ؟ إنهم ينسابون فى غمارهـا ، يندفعون فى لجها — كما تندفع أنت يا أستاذ بالذات — حذو القذة بالقذة ، ولكن تمرُّ الشهور ، وتتصرم السنون ، وينتهى العمر ، وهم لا يفطنون لذواتهم ، ولا يعرفون عن هذا السرور شيئاً ، كيف جاء ، وكيف راح ؟ تلك قضية لا دخل لهم فيها . حسبهم أنهم مسرورون وكفى ؛ أما هؤلاء الذين يلقون أنفسهم بالسرور إلقاء ، ثم يقفون عند كل شوط ، ليسائلوا أنفسهم هل سروا حقاً ؟ هل استطاعوا أن يغرقوا ذواتهم المضطربة ، ويسكتوها ولو دقيقة واحدة ؟ فهؤلاء بعيدون عن السرور ، وأحرى أن يتقلب بهم هذا السرور إلى شر ، أو يزيدهم شراً . ، إنهم يحتسون من خمرة الخيام تلك التى اتخذها ليغرق فى أكوابها صحوه وعقله

وإذا ما التوت الحياة وتعقدت ، وكان ضيقها لا ينفرج ، وعقدتها لا تحل ، إلا فى نحر الوفاء ، وتضحية الصدق ، فما عسى يصنع الأديب ؟ أما ابن الحياة فينحر هذه غير آسف ، بل هو ينحرها دون أن يعلم ، ولو توصلاً « إلى ترفيع درجة إن كان موظفاً » ... فهل يستطيع الأديب ذلك ؟ وماذا يصنع بهذا الضمير وهذه المثل التى لا حياة له إلا بها ؟ إنه خليق أن يجن ان فعلها . . .

نعود فنستميح — أديبنا المازنى — عذراً ، فما أراد كل هذا ، وإنما أراد أن يوهم نفسه ساعة واحدة أنه أصبح كسائر الناس ، يسر بما يسرون ويضحك كما يضحكون . وقديماً قال :

ياسدى إن بقلبى لكلوماً وهموماً ... مدرجات فيه لكن لا تموت
كلما قلت قضت رهن السكوت ... صحن بى من كل فج يتراءى
عم مساء

أما هـذا الرفيق المخالف الذى يتمناه للأديب ، فما إخال الأحياء مع الأديب إلا إياه ، وما أظن الدنيا تتعدى أن تكونه ، فحسبه هذا . . .

(شرق الأردن) عبد الحليم عباس